

# لسعدي التتيرازي يرثي بغداد

## رثاء المدن عمران الفزوانفواي

بقلم : مامون فريز جزار

■ ■ لم تكن نكبة بغداد ، وسقوط الخلافة الإسلامية مصيبة أهل العراق وحدهم ، وإنما كان لها في كل قلب مسلم وقع خنجر وصدى انهيار ! صحيح أن الخلافة الإسلامية قد تقلص سلطانها ، وانكمش ظلها ، فلم تعد للخلافة سلطة في غير بعض العراق ومناطق من خوزستان ، وانفرد بالحكم والسلطان حكام وامراء في بلاد الشام ومصر وشمال افريقية وغيرها .. ولكن الخلافة كانت رمزاً لوحدة المسلمين ، وتراناً يذكرهم بسالف المجد ، وماضي العز ، واثراً من آثار النبوة ، وظلاً من ظلال الشريعة .. ■ ■

المستنصرية لما خلت من العلماء الراسخين الذين بكتهم المحابر  
والتي طالما سطرها الكتب بمدادها !  
تُسَائِلُنِي عَمَّا جَزَى يَوْمَ حَصْرِهِمْ  
وَذَلِكَ بِمَا نَيْسَ تَدْخُلُ فِي الْخَصْرِ  
أَبِيرَتْ كُؤُوسَ الْمَوْتِ حَتَّى كَأَنَّه  
رُؤُوسُ الْإِسْرَائِي تَزْجِرُ مِنَ السُّخْرِ<sup>(1)</sup>  
لَقَدْ نُجِلَتْ أُمُّ الْفَزَى .. وَوَجَعِبَ  
مَدَامِغُ فِي الْمِيزَابِ تُسَكَّبُ فِي الْجَبْرِ  
بَعَثَ جُدُرُ الْمُسْتَنْصِرِيَّةِ نُدْبَةً  
عَلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ ذَوِي الْجَبْرِ  
نَوَائِبُ ذَهَبٍ لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَهَا  
وَلَمْ أَرِ عُدُوَّ السُّيْهِ عَنَى الْخَبْرِ  
مَضَابِرُ تَبَجِي بَغْدَهْمُ بِسَوَادِهَا  
وَبَعْضُ قُلُوبِ النَّاسِ أَخْلَكَ مِنْ جَبْرِ !  
ويتحول سعدي إلى ندابة على بغداد وأهلها .. بنوح نوح  
الخنساء على أخيها « صخر » معرضاً عن كل ناصح بالصبر :  
مَرَزَتْ بِصَمِّ الرَّاسِيَاتِ أَجُوبَهَا كَخَنْسَاءٍ مِنْ فِزْطِ الْبِكَاةِ عَلَى صَخْرِ  
أَيَا نَاصِجِي بِالصُّبْرِ دَغْنِي وَرَفْرَتِي أَمْضِغُ صَبْرِي وَالْكَبُودُ عَلَى الْجَفْرِ؟  
ويقف الشاعر عند مصب شط العرب يرقب دجلة الذي تحول  
ماؤه إلى دم قان من كثرة القتلى ، ويضيف إلى مصيبة بغداد  
مصيبة واسط ، فتتكاثر الأحزان ، ولا يجدي معها شيء من  
الطب !

ولذلك وجدنا أكثر من شاعر ، من مواطن شتى من ديار  
الإسلام ، يرثي بغداد وخليفتها وأهلها .. فالكوفي العراقي ..  
والتنوخي الشامي .. واليوم نقف مع شاعر مسلم فارسي .. رثى  
بغداد بالعربية والفارسية .. وهو الشاعر المعروف سعدي  
الشيرازي [ت ٦٩٤هـ] .  
ونقف مع هذا الشاعر لنسمع منه ما سمعناه من زميليه  
السابقين .. فنرى الدموع التي تفيض ولا يمنعها حاجز ! وتمني  
الموت قبل وقوع النكبة . قال<sup>(1)</sup> :

خَبَسْتُ بِجَفَّتِي الْمَدَامِغَ لَا تُجْرِي  
فَلَمَّا طَفَى الْمَاءُ اسْتَطَالَ عَلَى السُّخْرِ<sup>(2)</sup>  
نَسِيمُ صَبَا بَغْدَادَ بَعْدَ حَزَابِهَا  
تَمَنَيْتُ لَوْ كَانَتْ تُمُرُّ عَلَى قَبْرِي !

ولا يقف الأمر بالشاعر عند البكاء وتمني الموت بل يتعداه إلى  
أن يصاب بالمرض الذي يعي الأطباء !  
رَجَزَتْ طَبِيباً جَسَّ تُبْجِي مُدَاوِيَا إِنَّكَ فَمَا شُكُوَايَ مِنْ مَرَضٍ تُبْرِي  
لَزِمْتُ اضْطَبَاراً حَيْثُ كُنْتُ مُفَارِقاً وَهَذَا فِرَاقِي لَا يُعَالِجُ بِالصُّبْرِ  
ويصف بإيجاز ما حل ببغداد وأهلها من العذاب ! فما حل بها  
من العذاب يفوق الوصف ! فقد أدبرت كؤوس الموت ، وتمايلت  
رؤوس أهلها تمايل السكارى ، وكان لعموم الفناء فيها صدق في  
مكة التي تثلث بزوال الخلافة ، فسكبت الكعبة مدامعها في  
الميزاب الذي يصب في حجر إسماعيل ، ويكت المدرسة

## لسعدي التتيرازي يرثك بغداد



وهل يحمل تشبيهه الخليفة بالنبي يونس في بطن الحوت شعوراً بأن حال المسلمين لا تصلح إلا بمعجزة؟ وهو يرم بصبر المسلمين على ما حل بهم ، فهو يصب ضيقه ومرارته في هذا الاستفهام « اصبر على هذا ...؟ » ، ولكن اليأس يغلبه .. فالخلافة كالعنقاء .. لظمت وكراها عندما تزاخمت الغربان في ديارها ! فقد انتقلت الخلافة من عالم الحقيقة إلى عالم الوهم ..

فهي عنقاء .. والديار خراب .. فهي مليئة بالغربان !!  
أيدكر في أغلى المنابر خطبةً ومستغصم بالله لم يك في الذكر صفادغ حول الماء تلعب فرحةً أصبر على هذا ويونس في الفجر؟ تراخمت الغربان حول رؤسها فأصبحت العنقاء لازمة الوخر

ويخص الشاعر بالذكر ابن الخليفة أحمد الذي قتل في واقعة بغداد ويرثيه ، ويذكر ما أصابه من العذاب قبل القتل .. ثم هو يعمم الرثاء والعزاء ليشمل كل من قتل في بغداد . ويلفت النظر تعظيم الشاعر للأخرة وثوابها وتهوينه من الدنيا وشأنها .. وذلك حق إلا أنه في هذا المقام مظهر يأس وعجز لا من الشاعر فحسب بل من المسلمين عامة !

أينا أخمد المفضوم لشت بخاسر  
وزوخك والفردوس عسرة مع اليسر  
وجنات عدن خلقت بمكاريه  
فلا بد من شوك على فني اليسر  
تهناً بطيب الغيش في مقعد الرضى  
وذغ جيف الدنيا لطائفه النسر !!!  
ولا فرق ما بين القتل وميت  
إذا قتت حياً بغد زمسك والمخر

وقفت ببغدادان أرقب بجله كمثل دم فإن يسيل إلى البحر  
وفاض نعي في مصيبة واسط يزسد على مد البخيرة والجرب  
فجرت مياه العين فازدنت حرقة عما اخترقت جوف الدمايل بالفجر  
ولا تسألني كيف قلبك والثوى جراحة قلبي لا تبين بالسفر !

إن سعدي يعبر عن فاجعة شخصية والم نفسي تحول إلى ألم محسوس . يكاد يضع يده عليه .. ولكن لا يفيد فيه طب الأطباء ولو كان جراحة في القلب ! وينظر الشاعر في نكبة بغداد فيرى أنها خرق لا يرقع ، وجرم لا كفارة له ، فلو عاد العمران إلى بغداد ، وزالت عن الناس آثار النكبة ، فإن المصيبة ببني العباس لا تعوض ! وقد كان عند كثير من المسلمين اعتقاد بأن ملك بني العباس دائم إلى قرب الساعة ! ولذلك يرى أن الإسلام قد عادت له الغربة الأولى :

وهب أن دار الفلك تزجج عامراً ويُغسل وجه العالمين من الغفر  
فأين بنو العباس مُخبرو الأوزى ذوو الخلق المرضى والغرب الزهر  
غدا سغراً بين الأنام حديقهم وذا سغري ذي المسامع كالسفر !!  
وفي الخبز المزوي بين مخمب يغود غربياً مثل مُبنداً الأمر  
أنغرب من هذا يغود كما بدا وسني دينار السلم في بند الكفر  
ويعصف الحزن على الخليفة في نفس الشاعر . فيتمنى أن يتوقف نهر دجلة وتجف الأعشاب الخضراء على ضفافه ، وينسحب الحزن على بغداد من عالم البشر إلى مظاهر الطبيعة التي نقل إليها نبال الكارثة نعي الغربان في البراري :

فلا ائذرت بغد الخلائف بجله  
وخالفاتها لا أعشبت وزق الخضر  
بكت سمرات البید والشيخ والغضى  
بكترة ما ساحت أغاربه الظفر  
ويذكر الشاعر الخليفة المستعصم بالله ويكشف عن لائه له ، فهو لا يطبق سماع خطبة لا يكون فيها ذكره ، ويعطي لحال الخليفة وأعدائه صورة فيها رغبة بالثورة على الواقع الذي انحدر إليه المسلمون ، تلك هي صورة ضفادع تلعب حول الماء فرحة ، وقابلها بصورة النبي يونس في بطن الحوت ! فهل عني بالضفادع المغرول وأعداء الخليفة ؟

## ■ كانت الخلافة رمزاً لوحدة المسلمين وسالف مجدهم ، وظلاً من ظلال الشريعة السمحة ، ومن هنا كان سقوطها مصيبة عظيمة أنطقت الشعراء بالثناء الفاجع ، وتركت في قلب كل مسلم جرحاً غائراً لا يندمل ..

تَقُومُ وَتَجُؤُ فِي النَّخَاجِرِ وَاللَّوِيِّ  
وَهَلْ يَخْتَفِي مَشِي النَّوَاعِمِ فِي الْوَعْرِ !؟

إن سقوط بغداد وزوال الخلافة أمر لم يكن من السهل تقبله خاصة أن المسلمين قد قرء في أذانهم أن ملك بني العباس دائم إلى يوم القيامة محاط بعناية ربانية ! وقد صرح بذلك الخليفة المستعصم في بعض مراسلاته مع هولاءكو ! من أجل ذلك نجد الحيرة والذهول يسيطران على عقل الشاعر .. وهو يرى نيران الفتنة تتأجج في ديار الإسلام ، وتلتهم أجزاءه .. فهل تفلتت الشياطين من قيودها ؟ وأسالت عين القطر على بغداد فأهلكتها !؟

لَقَدْ كَانَ فِكْرِي قَبْلَ ذَلِكَ خَائِباً فَأُحْدِثُ أَمْرٌ لَا يُحِيطُ بِهِ فِكْرِي  
وَبَيْنَ يَدَيَّ صَرْفَ الزَّمَانِ وَخُجْمِهِ مُغْلَلَةٌ أَيْدِي الْكَيْسَانَةِ وَالْخَيْرِ  
تَعُودُ بِغُفْوِ اللَّهِ مِنْ نَارِ فِتْنَةٍ تَأْجُجُ مِنْ قَطْرِ الْبِلَادِ إِلَى قَطْرِ  
كَأَنَّ شَيَاطِينَ الْقُيُودِ نَفَلْتُمْ فَسَالَتْ عَلَى بَغْدَادَ عَيْنٌ مِنَ الْقَطْرِ  
بَذَا وَتَعَالَى مِنْ خُرَاسَانَ قَسَطَلٌ فَعَادَ رُخَاماً لَا يَزُولُ عَنِ الْبَدْرِ

ويقف الشاعر بعد ذلك متبرماً بأحداث الزمان التي قست على المسلمين .. إلا أنه يرمي إلى سبب ذلك البلاء ، وهو العصيان واقتراف الإثم .. ثم هو لا يملك إلا الدعاء بأن يمن الله على المسلمين بالصبر !

إِلَافَ تَضَارِيفِ الزَّمَانِ وَجَوْرُهُ تَكَلَّفْنَا مَا لَا نَطِيقُ مِنَ الْإِضْر  
عَفَا اللَّهُ عَنَّا مَا فَضَى مِنْ جَرِيمَةٍ وَمَنْ عَلَيْنَا بِالْجَمِيلِ مِنَ الصَّبْرِ

هوامش :

- (١) اورد هذه القصيدة الدكتور حسين محفوظ في كتابه ، المتنبي وسعدي ، ص ٧٣ وما بعدها ، وأشار عباس العزاوي في ، تاريخ الأدب العربي في العراق ، ج ١ ص ٣٠٤ إلى أن القصيدة موجودة في ديوان سعدي باللغة العربية المخطوط ، الموجود لديه ، ونشرت القصيدة في مواطن أخرى ..
- (٢) الشكر : ما يُسند به النهر . (٣) ترجحن : تهتز وتتميل .
- (٤) الشعر : شد الشيء بالمسمل .
- (٥) الزوراء : اسم لدجلة ببغداد ، ومدينة المنصور ببغداد .
- (٦) بنو قنطوراء : الترك والصين ... الذين كان منهم القنطار .

تَجِيءُ مُشْتَاقِي وَأَلْفُ تَرْحُمِ  
عَلَى الشَّهْدَاءِ الطَّاهِرِينَ مِنَ النُّورِ  
هَنِيئاً لَهُمْ كَأْسُ الْغَنِيَّةِ مُتْرَعاً

وَمَا فِيهِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عِظَمِ الْأَجْرِ  
فَلَا تُحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفٌ وَعْثِهِ  
بِأَنَّ لَهُمْ دَارَ الْكَرَامَةِ وَالْبُشْرِ  
غَلِيظِهِمْ سَلَامٌ اللَّهُ فِي كُلِّ نَيْلَةٍ

بِمَقْتَلِ زَوْءِ إِلَى مُطَّلِعِ الْفَجْرِ<sup>(١)</sup>  
ويقف بنا الشاعر على بعض مشاهد التكبّة ويظهر انفعاله في تصويرها . فهو يتمنى لو أصيب بالصمم قبل استماع أنباء سبي المسلمات ، وقيام الساعة في بغداد يوم أسر أهلها ، وارتفعت أصواتهم بالاستنجاج ولا مغيث ! فكانوا كالعصفور بين يدي صقر !  
وهذا التشبيه يحمل كثيراً من الدلالات على حال المسلمين الذين تحولوا إلى عصفار وصار أعداؤهم صقوراً يفتكون بهم !  
ومن أولئك الأعداء عترة قنطوراء (القنطار) .

فَلَيْتَ صِمَاخِي صُمَّ قَبْلَ اسْتِمَاعِهِ  
بِهَيْبِكَ أَسَاتِيرَ الْمُخَارِمِ فِي الْأَشْرِ  
عَذُونَ سَبَايَا سَبَسِبَا بَعْدَ سَبَسِبِ  
رُخَائِمِ لَا يَسْطِغُرُ مَشِيّاً عَلَى الْخَبْرِ

لِعَمْرِكَ لَوْ عَابَتْ لَيْلَةٌ نَفْرَهُمْ  
كَأَنَّ الْعَذَائِي فِي الدُّجَى شُهْبٌ تَشْرِي

وَأِنْ صَبَّاحَ الْأَشْرِ يَوْمَ قِيَامَةٍ  
عَلَى أُمَّمِ شَعْبِ تَسَاقِ إِلَى الْخَشْرِ  
وَمُسْتَضْرَحِ يَاللَّهْرُوءَةَ فَاَنْصَرُوا

وَمَنْ يُصْرُخُ الْعَصْفُورَ بَيْنَ يَدَيَّ صَفْرٍ !!؟  
يُسَاقُونَ سَوَاقِ الْغَفْرِ فِي كَيْدِ الْفَلَا  
عَرَائِزُ قَوْمٍ لَا تَعُودُنَّ بِالرُّجْرِ  
جُلِيئِينَ سَبَايَا سَابِرَاتٍ وَجُوهَهَا

كَوَاعِبَ لَا يَبْرُرُنَّ مِنْ خَلَلِ الْجَدْرِ  
وَعَثْرَةَ قَنُطُوزَاءِ فِي كُلِّ مَنَزَلِ  
تَصِيحُ بِأَوْلَادِ الْبُرَامِكِ مَنْ يَشْرِي<sup>(٢)؟</sup>